الفصل الثالث

العولمة وثورة المعلومات

(١)

معلومات بلا معرفة

فى نهاية محاضرة لمؤرخ بريطانى كبير، استمعت إليها منذ بضع سنوات، وجّه إليه أحد الحاضرين السؤال الطريف التالى: «لنترك التاريخ جانبا ولنفكر فى المستقبل، ولتقل لنا ما هى تلك الظاهرة فى حياتنا الاجتماعية الآن التى تتوقع لها الزوال فى المستقبل، بل وتتوقع أن يسخر أحفادنا منا بسببها، ويتعجبون من أننا لم نكتشف سخافتها وحماقتها؟» .

فكرّ الأستاذ المؤرخ قليلا ثم قال: «نظام المحلفين - ذلك أننى لا أتصور كيف نسمح بالحكم على شخص بأنه مذنب أو غير مذنب، مما قد يؤدى به إلى الإعدام، بناء على رأى مجموعة من الناس نختارهم اختيارا عشوائيا من الطريق العام، دون أن يكون لدينا أى سبب للاعتقاد بحكمتهم وحسن تقديرهم. نعم، لابد أن أحفادنا أو أحفاد أحفادنا، سوف يسخرون منا لأننا طبقنا هذا النظام وتحملناه كل هذه السنين».

تذكرت هذه القصة منذ أيام بعد أن جئت إلى بريطانيا فى رحلة قصيرة وجلست أشاهد التليفزيون الإنجليزى. إذ قفزت إلى ذهنى فجأة

الفكرة التالية: (أنني أعرف الآن ما يمكن أن أجيب به على ذلك السؤال الذى وجّه إلى المؤرخ البريطانى منذ سنوات. إني أعرف الآن ما هى تلك الظاهرة التي سوف يسخر أحفادنا أو أحفاد أحفادنا منا بسببها: إنها إذاعة نشرات الأخبار كل بضع ساعات، وإعادة ملخص لها كل بضع دقائق، حتى أننا لم نكتف بكل هذا، وسمحنا لشبكة تليفزيونية جديدة أن تدخل إلى بيوتنا لتخبرنا بآخر الأخبار طوال أربعة وعشرين ساعة فى اليوم).

لقد راعني أمر هذه الظاهرة، أنا القادم من مجتمع يدعى بالمجتمع (المتخلف)، إلى أحد هذه المجتمعات (المتقدمة)، والتى يعتبر من بين المظاهر الأكيدة لتقدمها ما يسمى (بثورة المعلومات)، التى تتمثل فى نجاحها الباهر في جمع المعلومات وتخزينها وتحليلها وتوصيلها من أقصى أطراف المعمورة إلى طرفها الآخر، فى غمضة عين وبأدنى مشقة وأقل نفقة، بحيث أصبح من الممكن أن يعرف الجالس أمام شاشة التليفزيون أو جهاز الكومبيوتر، ما يحدث فى نفس اللحظة على بعد الآلاف المؤلفة من الأميال، بصوته وصورته، وبأدق تفاصيله.

سألت نفسى أولا عما إذا كان التكوين الطبيعى أو البيولوجي للإنسان يسمح له باستيعاب هذا الكمّ الهائل من المعلومات، والذى يلقى به على سمعه وبصره خلال الدقائق التى تستغرقها نشرة الأخبار، والتى تتضمن من بين ما تتضمنه، أخبار ثورة هنا، وحريق هناك، وجريمة قتل فى مدينة، وقبول أحد السياسيين لرشوة فى مدينة أخرى، ووفاة عالم كبير، وزواج راقصة شهيرة، وارتفاع أسعار الأسهم فى طوكيو، وإفلاس بنك فى

نيويورك، فضلا عن حادثة تلوث في المحيط الهادي، وسقوط طائرة فوق ولاية أمريكية، ثم يعقب كل ذلك أخبار المسابقات الرياضية، وخبر وفاة أحد الأسود في حديقة الحيوانات، وما ينتظر أن يكون عليه الطقس غدا، وبعد غد، وبعد أسبوع، وبعد شهر.. إلخ.

هل حقا يستطيع الإنسان العادي، أو غير العادي، أن يستوعب كل هذا في الدقائق التي تلقى عليه فيها نشرة الأخبار ، وأن يفكر فيها ، وأن يعطي لكل خبر منها ما يستحقه من اهتمام، حتى يصل إلى مغزاه، ويربط بينه وبين غيره؟ أم إن الأمر ينتهي إلى أن يتحول السامع أو الشاهد لهذه الأخبار إلى متلقٍ سلبي أبله، تسجّل على حواسه هذه الأخبار دون أن تحدث أية إضافة إلى فهمه الحقيقي لما يحدث في العالم، فلا يبقى إلا ما يتركه كل هذا الضجيج من أثر سيئ على جهازه العصبي؟

ثم سألت نفسي عما إذا كانت ثورة المعلومات تعني بالضرورة ثورة في المعرفة: فالراجح أن المعلومات شيء والمعرفة شيء آخر، بل قد تكون العلاقة بينها - في كثير من الأحوال - علاقة عكسية، فإذا زادت المعلومات عن حدّ معين قلّت المعرفة بدلا من أن تزيد، وذلك إذا أدت زيادة المعلومات إلى عسر في الهضم وضعف في الاستيعاب. إن تحوّل المعلومات إلى معرفة يفترض حدا أدنى من الفهم، واستخلاصا للمغزى، وربطا بين معلومة وأخرى، أي أن هذا التحوّل يتطلب نشاطا إيجابيا هو ما نسميه (بالتفكير)، بينما لا يتطلب نقل المعلومات أكثر من القدرة على تلقيها وترديدها.

ألم نكن نضحك في صبانا ساخرين من زميل (صمّام) ، يحفظ الدروس عن ظهر قلب ويضعها كما هي في ورقة الإجابة دون فهم، فيتكرر رسوبه في الامتحان لأنه، وإن كان قد حفظ (المعلومات)، لم يحقق (المعرفة)؟ أليس هذا شبيها بما تفعله بنا اليوم ما يسمى (بثورة المعلومات)؟ أو ليس هناك خطر حقيقي في أن يقترن اتساع معلوماتنا بضعف في الإدراك وتدهور في الفهم؟

abdelkandil.com

(٢)

معلومات أقل .. وحكمة أكبر

من أظرف ما قيل عن التنمية الاقتصادية أن التنمية مثل الزوجة، فهى خير من يساعدك على حل المشكلات التى ما كانت لتوجد أصلا لولا الزواج! فهكذا التنمية، كثيرا ما يقتصر نفعها على حل مشكلات لم توجد أصلا قبل التنمية. مثال ذلك تجديد الطرق ووضع علامات المرور وإنشاء إدارات لتنظيم مرور السيارات وإصدار الرخص وتحصيل الغرامات على مخالفاتها والإنفاق على علاج المصابين فى حوادثها.. إلخ مما لم يكن موجودا قبل أن تعرف السيارة، وقبل أن يتضخم حجم المدن إلى الدرجة التى جعلت استعمال السيارة ضروريا.

إن شيئا مماثلا يمكن أن يقال عما يسمى (بثورة المعلومات). فزيادة معلوماتك قد تساعدك فى كثير من الأحيان على حل ما تصادفه من مشكلات (فزيادة معلوماتك عن محرك السيارة مثلا قد يسهل عليك مهمة إصلاحها) ولكن من الصحيح أيضا أن بعض المشكلات التى تحتاج إلى مزيد من المعلومات لحلها ما كانت لتوجد أصلا لولا كثرة المعلومات ابتداء. فالدولة الحديثة مثلا تقوم بتجميع وتخزين وتحليل كمية هائلة من المعلومات عن مواطنيها لتمكينها من القيام بوظائفها المتعددة التى من بينها وظيفة حفظ الأمن، ولكن الدولة الصغيرة، والأقل تقدما، يمكنها أن تحمى أمنها دون أن تجمع هذا الحجم الهائل من المعلومات، لأن الجريمة فيها أقل انتشارا أو أقل تعقيدا، بسبب بساطة المجتمع وقلة

تعقيده. إن ملاحقة ثورة المعلومات قد تكون في جزء منها مجرد وسيلة لحل مشكلات ساهمت ثورة المعلومات نفسها في خلقها.

بل إني أميل إلى الاعتقاد بأن الكلام الكثير عن ثورة المعلومات وأهميتها في زيادة درجة الرفاهية هو كلام مبالغ فيه إلى حد كبير. إن التقدم في ميدان المعلومات هو بلا شك ضروري للحاق بالعالم المتقدم تكنولوجيا، ولكنني لست واثقا على الإطلاق من أن هذا اللحاق هو بالضرورة شرط لرفع مستوى الرفاهية.

إني أحب أن أذكر القراء بأن الثورة الصناعية قامت في أوروبا الغربية منذ نحو قرنين بكمية محدودة جدا من المعلومات، وأن أعظمَ المشروعات الاقتصادية والعمرانية في القرن الماضي، كإدخال السكك الحديدية مثلا، قد تحققت من دون أن تجرى لها حسابات دقيقة من نوع ما يسمى الآن بحساب (العائد والنفقات)، بينما نجد مؤسسات التمويل الدولية الآن، كلما تقدمت إليها دولة فقيرة تطلب قرضا على سبيل المعونة، تصرّ على أن تقدم لها هذه الدولة تحليلا دقيقا (للعائد والنفقات)، يبرر إقامة المشروع، حتى ولو كان المشروع المطلوب تمويله واضح النفع وضوح الشمس، كمد سكة حديد بين مدينتين مهمتين، أو إنارة قرية مظلمة، أو حتى توفير مياه الشرب النقية.

ويمكنني أن أضرب مثالا آخر أقرب منا عهدا، هو نجاح مصر في إحداث تنمية اقتصادية واجتماعية سريعة ومتوازنة خلال سنوات الخطة الخمسية الأولى في النصف الأول من الستينات، وهي التي يمكن أن

تعتبر أنجح الخطط المصرية حتى الآن. هذه الخطة الأولى الناجحة تم وضعها وتنفيذها في ظل كمية محدودة جدا من المعلومات عن الاقتصاد المصرى إذا قورنت بكمية المعلومات المتاحة الآن. إن المعلومات الضرورية لتحقيق تنمية ناجحة ليست إذن بالضخامة التي كثيرا ما يزعمونها.

من ناحية أخرى يمكن القول بأن كثرة المعلومات لا تكفى وحدها لحل كثير من المشكلات. تأمل مثلا فشل الدول الصناعية (المتقدمة) في حل مشكلات الجريمة والعنف وإدمان المخدرات، بل ومشكلات التضخم والبطالة.. الخ، مع كل ما يتوافر لدى هذه الدول من معلومات تتعلق بهذه المشكلات، بل إني سأذهب إلى حد الزعم بأن كثرة المعلومات، في بعض الأحيان، يزيد ضررها عن نفعها.

فلنتأمل مثلا حجم المعلومات التي تكتب على كل سلعة وصنف من آلاف السلع والأصناف المعروضة في (السوبر ماركت)، حيث يفترض أن المستهلك الرشيد لابد أن يطالع كل هذه المعلومات ويقارن بين كل صنف وآخر من حيث قيمته الغذائية أو الاقتصادية. إن اعتراضى على هذا وأمثاله يكمن في اعتقادى بأن الإنسان لايحتاج حقيقة إلى كل هذا القدر من المعلومات، وأن زيادة المعلومات عن حدّ معين قد يصيب جهاز الإنسان العصبى بالعطب وقد تضعف قدرته على التفكير. أنا أفضّل مثلا مذهب أول صحيفة ظهرت في الولايات المتحدة منذ أكثر من قرنين، إذ أن الصحيفة لم تصف نفسها في الصفحة الأولى بأنها صحيفة يومية أو أسبوعية، بل كتبت تحت اسمها (تصدر عند اللزوم)!

نحن نحتاج إلى معلومات أقل وحكمة أكبر. قد نحتاج إلى معلومات كثيرة عن تلوث الهواء وعدد المصابين به وعدد الأسرّة المطلوبة فى المستشفيات لعلاج المصابين بأمراض ناتجة عن التلوث. ولكن الأرجح أنه كان من الممكن، لو كان لدينا قدر أكبر من الحكمة ابتداء، أن نتجنب تلويث الهواء أصلا فلا نكون فى حاجة إلى كل هذه المعلومات.

obeikandi.com

(٣)

حقّ الناس فى أن تعلم

ليس كل العلم مفيدا ولا كل ما يمكن معرفته، تجدر بنا معرفته، ومن الأسرار ما يجب أن يظل سرًا. تأكد لى ذلك عندما صادفت فى فترة قصيرة ثلاثة أمثلة صارخة لاستخدام التكنولوجيا الحديثة استخداما ضرره أكبر بكثير من نفعه، وتشدقت فيها وسائل الإعلام بما اسمته (حق الناس فى أن تعلم) وهدفها الحقيقى هو تحقيق الربح المادى الوفير أو المكسب السياسى الرخيص. مثالان من الأمثلة الثلاثة حدثا فى بريطانيا، والثالث فى الولايات المتحدة.

□□□

منذ فترة انشغل الناس فى بريطانيا بمجموعة من الصور، التقطت لسارة فرجسون التى كانت واحدة من أفراد الأسرة المالكة البريطانية عندما كانت زوجة الأمير اندرو ابن الملكة.

أما الصور فقد التقطت بكاميرا دقيقة ومتقدمة للغاية، ومن مسافة قيل إنها تزيد على ٤٠٠ متر، تظهر فيها زوجة الأمير فى وضع يخدش الحياء مع صديق لها، وعلى القرب منهما طفلتاها الصغيرتان. قامت الدنيا وقعدت بسبب الفضيحة. بعضهم ثار ضد سارة فرجسون التى سمحت لنفسها بمثل هذا التصرف، وهى لا تزال قانونا ، زوجة للأمير،

وأمام أعين طفلتيها الصغيرتين، وآخرون ثاروا لأن بعض الصحف البريطانية سمحت لنفسها بأن تنشر صورا تمس أدق تفاصيل الحياة الشخصية لبعض الناس، خصوصا إنهم من أفراد الأسرة المالكة، وتتيح لكل من هب ودب أن يطلع على هذه التفاصيل ، ودافعت الصحف عن نفسها بالقول إن (من حق الناس أن تعلم).

والحادثة الثانية تتعلق بزوجة الابن الأكبر للملكة ، ولى العهد الأمير تشارلز، وهى الأميرة الشهيرة ديانا ، عندما التقط أحد الأشخاص عن طريق جهاز راديو دقيق ومتقدم تكنولوجيا، مكالمة هاتفية، قال إن طرفيها هما الأميرة ديانا وصديق قديم لها، يتبادلان فيها عبارات المحبة والغرام. وقدم الرجل تسجيلا للمكالمة إلى إحدى الصحف واسعة الانتشار، فإذا بها تنشر أجزاء منها، وتتيح الاستماع لكل من يرغب فى أن يستمع للتسجيل كاملا بنفسه، إذا اتصل برقم هاتفى معين، ودفع مقابل ذلك مبلغا من المال. فإذا بعشرات الآلاف من الناس يتسابقون للظفر بالاستماع إلى هذا التسجيل العظيم، وتضطر الصحيفة إلى زيادة عدد خطوط الهاتف المتاحة لهذا الغرض إلى ٢٠٠ خط هاتفى. وبررت الصحيفة هذا التصرف بأن الجماهير من حقها أن تعلم.

□□□

وفى الولايات المتحدة لم تتح مثل هذه الخدمة للناس صحيفة أو شركة بل أتاحها الحزب الحاكم نفسه، وهو الحزب الجمهورى، بعد ما حقق هذا الحزب انتصارا كاسحا بأن كشف عن فضيحة تورط فيها

بيل كلينتون عندما كان مرشحا عن الحزب الديموقراطي لرئاسة الجمهورية، منافسا للرئيس بوش. وتتعلق الفضيحة بدخول كلينتون، وهو الرجل المتزوج ، في علاقة مع امرأة أخرى منذ بضع سنوات. فالحزب الجمهوري أعلن حينها أن كل من يرغب في الاستماع إلى تسجيل لمكالمة هاتفية جرت بين كلينتون وصديقته؛ يمكنه ذلك بالاتصال برقم هاتفي معين. ولا شك في أن الحزب الجمهوري قد برر هذا التصرف لنفسه وللناس بأن الناس من حقها أن تعلم تفاصيل الحياة الشخصية للمرشحين لمنصب الرئاسة.

وقد تكررت الظاهرة مرة أخرى ، كما يعلم الجميع ، ولكن بصورة أفدح ، عندما شغل الناس بعلاقة كلينتون بموظفة في البيت الأبيض هي مونيكا لوينسكي .

□□□

أنا شخصيا لست واثقا على الاطلاق من أن الناس لها فعلا مثل هذا الحق. نعم العلم مطلوب، ولكن ليس بكل شيء، وليس في كل الحالات . بل الجهل في مثل هذه الحالات التي نحن بصددها هو الحق والواجب معا. ومجرد أن معرفة مثل هذه الأشياء قد أصبحت ممكنة، بفضل التقدم التكنولوجي وتقدم وسائل الإعلام والاتصال، لا يجعل هذه المعرفة مرغوبا فيها. ومن المدهش فعلا، أن يكون هناك من لا يزال يعتقد بأن هذا هو أحد عناصر الديمقراطية والحرية. أو أنه من بين ميزات التقدم التكنولوجي أو الحضارة الحديثة . إنني لا أقول فقط إن شغل الناس بهذه

الأمور لا فائدة منه، بل أقول إن ضرره محقق؛ فشغل الناس بالأمور الشخصية لهذه الأميرة أو تلك، أو ذلك المرشح للرئاسة أو ذاك، لابد أن يصرف نظر الناس عما هو أهم بكثير ، ومن ثم يسمح لغيرهم بأن يقودهم دون أن يشعروا، وكأنهم قطيع من الغنم، في أي اتجاه يريدون أن يقودوهم فيه.

(٤)

متى يكون الجهل نعمة ؟

كنت أطالع فـي إحـدى الجرائـد الإنجليزيـة نقـدًا لفيلـم جديـد كـان يعرض في لندن، ويتعرض لحياة أحد كبار الفلاسفة عاش في مطلع هـذا القرن. وذكر ناقد الفيلم أن بعضا من أشهر الشخصيات الإنجليزية تظـهر في الفيلم، وأن الفيلم يشير إلى أن واحدًا مـن هـذه الشـخصيات الشـهيرة كان لديه ميل طفيف إلى الشذوذ الجنسـى. أصابنى الامتعاض لـدى قـراءة هذه المعلومة، وتمنيت لو أن المقال لم يذكرها، بل وتمنيـت لـو أن الفيلـم لم يتعرض لهذا الأمر أصلاً. فهذه الشخصية التي يعرض بـها الفيلـم لهـا دورها المرموق في تطور الفكر الإنساني. ولا يفيد أحدًا، فيما أعتقـد، أن يعرف نوع الميول الجنسية التي كان يتسم بها الرجل. وتساءلت عن النفع الذي يمكن أن يعود على أى إنسان من التعرض لهذه الأمور في فيلم مـن الأفلام أو في مقال في صحيفة ؟

على أن هذا ليس بأية حال من الأحوال، المثال الوحيد الذى يصادفـه المرء لنوع المعلومات التـى لا يفيـد أحـد مـن معرفتـها، خاصة إذا كـان يعيش في مجتمع من تلك المجتمعات المسماة (بالمتقدمة)، والتـى حققـت ما يسمى (بثورة المعلومات). ففي كل يوم تصادف في صحفهم وإذاعاتـهم وبرامجهم التليفزيونية أمثلة لهذا النوع من المعلومات التى يتمنى المـرء لـو لم يعرفه. خـذ مثـلا التفاصيل الدقيقة لجريمـة مـن الجرائـم، المدعومـة بالصور التى التقطتها كاميرات بالغـة التقـدم التـى تجعلـك تحـس بـأنك

لست بصدد صورة فوتوغرافية، بل ترى جسم الضحية بلحمه ودمه، أو تفاصيل الحياة العائلية لسياسي كبير أو فنان مشهور.. إلخ.

ما النفع الذى يمكن أن يعود من نشر هذه المعلومات؟ فإذا قيل إن للمرء دائما الحرية فى أن يختار ما يقرأ أو ما يسمع وأنك إذا لم يعجبك الاطلاع على هذه المعلومات فلتتجنبها، أجبت بأن وسائل الإعلام تمطرك بهذا الوابل من المعلومات سواء شئت أم أبيت، والأرجح ألا حيلة لديك فى تجنب هذه المعلومات مهما حاولت.

لقد قرأت فى مقدمة كتاب من كتب السيرة الذاتية، اعترافا من كاتب السيرة بأنه: وإن كان لن يذكر فى كتابه غير الحقيقة، فإنه لن يقول كل الحقيقة. وقد برر ذلك بأن هناك من الحقائق ما يحسن الامتناع عن قوله، ثم أضاف عبارة جميلة مؤادها: إن تعرية الجسم كله قد تأباه العين وتنفر منه، فما بالك بتعرية النفس كلها؟

بل إنى أحب أن أذهب إلى أبعد من هذا. وأزعم للقارئ أن المعرفة الحقيقية التى تفترض اتساعا فى الفهم وزيادة فى القدرة، قد تشترط تخفيضا لكمية المعلومات التى يتلقاها المرء بدلا من زيادتها. وسأضرب للقارئ مثالا بسيطا مستمدا من تجربة شخصية لى أكدت لى هذا الذى أقوله. فمنذ بضع سنوات وجدت نفسى فى مدينة لوس أنجلوس فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية، وكنت أرى هذه المدينة لأول مرة، بحجمها الكبير وشبكة طرقها البالغة التعقيد. والمتفرعة إلى آلاف الفروع طولا وعرضا وشمالا وجنوبا. وكان علىّ أن أقود سيارة لم أركبها من قبل، فى خضم هذه الشبكة المعقدة من الطرق، لأصل إلى الجامعة التى لم أكن قد

ذهبت إليها قط. ولا أعرف الطريق إليها إلا من خريطة أعطيت لى، ومن المعلومات المكتوبة على عدد لا نهائى من اللوحات والإشارات طوال الطريق . كان علىّ إذن أن أتابع كل هذه اللوحات الموضوعة على يمين الطريق و يساره على امتداد الطريق : واحدة تخبرك باسم الشارع الذى يتفرع إلى اليمين. وأخرى باسم الشارع الذى يتفرع إلى اليسار. وثالثة تخبرك باسم الحىّ الذى أنت على وشك دخوله ، ورابعة تخبرك بالسرعات المسموح بها لكل نوع من أنواع المركبات؛ وخامسة تخبرك بحالة الطريق ومدى تكدسه بالسيارات خلال الكيلو مترات العشرة القادمة.. إلخ. أصابتني كثرة اللوحات بالدوار ومنعتنى قراءة بعض اللوحات غير الضرورية لى من التركيز على اللوحات التى تفيدني بالفعل. ولم تكن قد تكونت لى الخبرة الكافية بعد للتمييز بين المفيد منها وغير المفيد. وإذا بى أتبين أننى أحتاج ، ليس إلى معلومات أكثر، بل إلى معلومات أقل، وأننى لكى أحقق هدفى وأصل إلى المكان الذى أقصده أحتاج إلى استبعاد نوع معين من المعلومات، والتركيز على بعضها دون البعض الآخر. وتبينت أن اكتساب معرفة حقيقية بما أحتاج إليه، يتطلب القدرة على تصفية المعلومات التى تتساقط علىّ بلا تمييز، إلى كمية أقل بكثير من المعلومات. يومها تأكدت من أن المعرفة ليست بكثرة المعلومات. بل قد تتطلب تقليلها، وأن زيادة المعرفة قد تشترط أحيانا تحصيل معلومات أكثر، ولكنها فى أحيان أخرى قد تشترط استبعاد بعض المعلومات.

وفى مثل هذه الحالات يكون الجهل نعمة حقيقية!

(٥)
التليفزيون والعنف

يتناقش الناس والكتّاب أحيانا حول ما إذا كانت هناك علاقة بين ارتفاع معدلات الجريمة وازدياد حوادث العنف، وبين ما يعرض على الناس على شاشة التليفزيون من أفلام وأخبار تتعلق بالجريمة والعنف. إذ لابد أن يتبادر إلى الذهن أن ازدياد حوادث القتل، والاغتصاب والسرقة بالإكراه، والسطو على البنوك والمحلات التجارية.. ألخ ، وعلى الأخص في البلاد المسماة (بالمتقدمة)، قد يكون من أسبابه كثرة ما يعرضه التليفزيون من أفلام حقيقية أو مختلقة، تتضمن هذه الجرائم بالضبط. خاصة أن التليفزيون قد أصبح أكثر وسائل الإعلام شعبية وتأثيرا ، وقد يفترض المرء أن بعض المشاهدين قد يميلون إلى تقليد ما يرونه على شاشة التليفزيون أو تقمص بعض ما يعرض عليهم من شخصيات.

هذا التفسير قد يكون صحيحا وقد لا يكون، ولكن المدهش أنه، مع قوة احتمال صحته، لم يكن له أثر على الإطلاق، كما نرى، فيما يعرضه التليفزيون من أفلام وأخبار. فالتليفزيون، سواء في البلاد المنتجة لهذه الأفلام، أو البلاد المستوردة لها، مستمر على حاله منذ سنوات طويلة، بل الأرجح أن نسبة ما يعرض فيه من مشاهد أو أفلام العنف، تتزايد مع الوقت ولا تنقص، كما أن درجة العنف التي نراها تزيد ولا تنقص. فالمناظر التي كانت تعتبر أشد وطأة، مما يمكن أن يحتمله المشاهدون يتزايد عددها، وما كان يكتفى بشأنه بمجرد التلميح، أصبح يعرض بكل صراحة وكل تفصيل ، وبينما كان يكتفي في الماضي بأن يعلم المشاهد

بما حدث من قتل أو اغتصاب عن طريق الإشارة إلى ما حدث بالكلام، لم يعد الآن يكتفي بأقل من تصوير واقعة القتل أو الاغتصاب بكل بشاعتها. وبلادنا التي يشار إليها (بالمتخلفة) أصبحت ترغب في الخروج من (تخلفها) هذا، في هذا الأمر أيضا. فقد أصبح مخرجو أفلام التليفزيون (والسينما) عندنا يشعرون (بالنقص) إذ لا يصورون العنف بنفس الصراحة والتفصيل اللتين يصور بهما في تليفزيونات البلاد (المتقدمة)، فأقبل مخرجونا بدورهم على إنتاج أفلام من نفس النوع، تزيد فيها مناظر العنف وضوحا وصراحة يوما بعد يوم.

ليست هناك صعوبة في تفسير هذا الأمر. فدافع الربح واضح في إنتاج هذه الأفلام، والمصالح المادية تكفي في نهاية الأمر لإخضاع برامج التليفزيون لرغبات المنتجين. كما أن إقبال الناس الغريزي (أو على الأقل الغالبية العظمى منهم) على مشاهدة هذه الأفلام – بصرف النظر عن عواقبها – يكفي عن طريق ما يجلبه لمنتجيها من ربح، لتفسير استمرار هذه الظاهرة وتفاقمها.

ويبدو أن منتجي هذه الأفلام، والقائمين على إدارة جهاز التليفزيون، في مختلف بلاد العالم، قد ارتاحوا لرأي معين ، مؤداه أن المهم ليس هو ما إذا كان العنف يقترن أو لا يقترن في التليفزيون، بل ما إذا كان عرض أحداث العنف يعتريه أو لا يعتريه بالإدانة والشجب. فالذين ينتجون هذه الأفلام، والذين يسمحون بعرضها، يعتبرون أن الأمر قد حسم، والخطر قد زال، بمجرد أن يقترن عرض مشاهد العنف بموقف الإدانة والرفض. فلا بأس في نظرهم، فيما يبدو ، من أن يرى الناس اللص

المحترف وهو يسطو على بنك، ما دامت القصة تنتهى بالقبض عليه، ولا بأس من أن يرى الناس فيلما يدور حول واقعة اغتصاب طالما أن المجرم قد نال جزاءه فى النهاية.. الخ. المهم فى نظرهم إذن أن يقال للمشاهد بشكل أو آخر أن (الجريمة لا تفيد).

والحقيقة هى أنى أشك بشدّة فى سلامة هذا الرأى، وأميل إلى الاعتقاد بأن الأثر السيء الناجم عن مشاهدة مناظر وأحداث العنف، واقع لا محالة مهما اقترن عرض هذه المناظر والأحداث بالإدانة خاصة إذا كان هناك فى طريقة عرضها ميل إلى إضفاء بعض الجاذبية ، من أى وجه كان، على شخصية المجرم، كأن يبدو المجرم وسيما أو ذكيا أو قويا.. إلخ . ذلك أن من الصعب أن نفترض أن مجرد الإدانة الأخلاقية أو القانونية لحادثة العنف، يمكن أن تمحو كل أثر نفسى قد يتسرب إلى العقل الباطن للمشاهد من رؤيته حادثة العنف نفسها، وما يمكن أن تثيره من رغبات كامنة أو استعداد دفين لدى بعض الناس لارتكاب مثل هذه الأعمال. بل إن أبسط ما يمكن أن يقال فى هذا الشأن هو أن كثرة عرض مثل هذه المناظر وتكرارها، قد يجعل الناس تعتاد على مناظر كانت تأنف منها من قبل وتنفر منها بشدة. فإذا بالعمل الذى كان كريها ولا يمكن تصوره، قد أصبح مألوفا، وجزءا من التجربة اليومية لشاهدى التليفزيون.

ألا يكفى مجرد هذا الاحتمال على الأقل، لأن نعيد النظر ونتبادل الرأى بكل رويّة وتأن فى الفائدة الحقيقية أو الضرر الحقيقى لما نعرضه على الناس كل يوم من مشاهد العنف والجريمة؟

(٦)
الجمهور ملكاً

لاحظت في السنوات الأخيرة تزايد إقبال التليفزيون وسائر وسائل الإعلام على تغطية الندوات والمؤتمرات الثقافية ، حتى أصبح من المألوف جدا، في هذه الندوات والمؤتمرات ، منظر الرجل القابع وراء آلات التصوير الضخمة المتحركة على عجلات، ومنظر حاملي الكشافات الساطعة المحيطين بالمصورين، وإلى جوارهم المخرج الذي يعطيهم التوجيهات الخاصة بما يجب تصويره ومالا يجب وأفضل الزوايا للتصوير، مما يذكرك بما يحدث هذه الأيام أثناء تصوير حفلات الزفاف الضخمة فيالفنادق الكبرى. كل ذلك في ندوات ومؤتمرات ، ما كان يظن المرء أن موضوعاتها مما يجذب رجال الإعلام إلى هذه الدرجة.

راعني على الأخص درجة الصلف والتكبر واللامبالاة وعدم مراعاة أبسط قواعد الاحترام التي يبديها هؤلاء الفنيين، من مصورين ومخرجين ومهندسي إضاءة.. الخ، في تعاملهم مع المحاضرين والمثقفين والمفكرين المشتركين في الندوة أو المؤتمر. فهم ، أي الفنيين ، يصدرون الأوامر إلى المثقفين بالنظر إلى هنا أو هناك، برفع صوتهم أو خفضه، أو بالانتظار حتى تصدر إليهم الإشارة بالكلام، أو حتى يفرغ الفنيين من تصوير المكان، أو من إنهاء حديث مع أحدهم.. الخ، والأغرب من هذا أنهم لايبدون وكأنهم يتوقعون من هؤلاء المثقفين إلا السمع والطاعة، ويستغربون أشد الاستغراب أن يعترض المثقف على أي شيء يفعلونه أو يطلبونه منه.

هؤلاء الفنيون ، من ممثلي التليفزيون والقنوات الفضائية، ووسائل الإعلام عامة، أصبحوا إذا الآمرين الناهين الذين تتحرك الدنيا طبقا لمشيئتهم.

يبدو أن هؤلاء المصورين والإعلاميين، ومعهم مديرو الندوات التليفزيونية، قد استقر لديهم الرأى أنهم بتصويرهم المثقفين والمفكرين وتسجيل كلامهم يسدون إليهم خدمة لا تقدر بثمن، وأن من حقهم، فى مقابل ذلك أن يطلبوا من المثقف أو المفكر ما يشاءون: أن يجيب على أى سؤال، وأن يسكت عندما يطلبون منه السكوت، حتى إذا كان ذلك قبل ان يتم الجملة التى بدأها، وقبل أن يشرح وجهة نظره شرحا مفهوما، وأن يتحمل فى سبيل ذلك أى عناء.

تساءلت عن السبب فى هذا كله فوجدت أن السبب أغرب من الظاهرة نفسها. وهى أننا نعيش فى عصر أصبح فيه الجمهور هو الملك المتوج ، ورجال الإعلام من مصورين ومخرجين ومحررين ومديرى الندوات الصحفية أو التليفزيونية ليسوا إلا رسل هذا الملك إلى كل من يمكن أن يخطر على بال الملك أن يستمع إليه أو يتسلى برؤيته. نحن المثقفين أو المفكرين أو الممثلين أو الموسيقيين.. إلخ لسنا الآن إلا مهرجى الملك: نؤمر فنطيع ، ونسأل فنجيب، ولو لم نظفر من الملك بأية مكافأة غير رضاه عنا، وإثارة رغبته فى أن يستدعينا من جديد ليرانا أو يستمع إلينا مرة أخرى.

هذا حال مؤسف حقا ، فهذا الجمهور ليس له أية ميزة أو فضل يؤهله لهذه المكانة إلا الحجم. ميزته الوحيدة تكمن فى العدد. إنه فقط جمهور غفير، لا أكثر ولا أقل. ولأنه جمهور غفير فإن طلباته مستجابة، إذ أن العدد الكبير ينطوى على إنفاق أموال كثيرة فى مجموعها، وفى سبيل ذلك لا حدود، فيما يظهر، لما يمكن أن تجبر الناس على فعله. هذا الجمهور هو وحش كاسر بلا عقل، ولكنه أصبح الآن قادرا، بسبب ما يسمى بثورة الاتصالات والمعلومات، على أن يخضع لمشيئته ونزواته أوسع الناس ثقافة وأرجحهم عقلا وأكثرهم حكمة.

(٧)

الأميرة ديانا نموذجًا

استغربت بشدة أن يكون وقع خبر مصرع الأميرة ديانا علىّ وعلى المحيطين بى، بهذه القوة. لماذا يكون شعورى، ولو لبضع دقائق، شبيها جدا بما يشعر به المرء لدى تلقيه نبأ سيئا عن شخص عزيز جدا لديه، كواحد من أقربائه أو أعز أصدقائه ؟

الأميرة فى نهاية الأمر ليست من هؤلاء، ولا أكاد اعرف عنها شيئا غير واقعة زواجها وطلاقها ثم مصادقتها لشخص باكستانى ثم لرجل مصرى. فيما عدا هذا لا أكاد أعرف عنها شيئا ذا قيمة وليس لدىّ أى فكرة عن طريقة تفكيرها أو ميولها الحقيقية ولا حتى عن تاريخ حياتها قبل زواجها من ولى العهد البريطانى.

إنها امرأة شهيرة بالطبع، ولكن كم هناك من المشهورين ممن لايعبأ المرء بما إذا عاشوا أو ماتوا، ومنهم من يغتبط المرء بسماع خبر اختفائهم من الوجود. نعم، هى امرأة جميلة جدا، ولكن مثيلاتها والأجمل منها كثيرات. لماذا إذًا هذا الجزع الشديد لدى سماع هذا الخبر عن الأميرة ديانا، ليس فقط عندى بل عند الملايين فى كافة بقاع الأرض، كما يؤكده ما رأيته من معارفى وما روته الصحف؟

للأمر علاقة بالطبع بما فعلته وسائل الإعلام بالأميرة ديانا: أدخلتها كل بيت، وبإلحاح غريب يندر أن يكون له سابقة، فهى فى الصحف

وسائر وسائل الإعلام كل يوم تقريبا، حتى أصبحت كأنها عضو من أعضاء كل أسرة يعرف الناس آخر أخبارها ولون آخر فستان ارتدته، وأين قضت آخر عطلة، وأسماء آخر أصدقائها، وتطور تفكيرها في مشروعات زواجها المقبل ساعة بساعة.

كيف لا يصدم الناس إذا صدمة عنيفة إذا سمعوا بمصرعها، وقد أصبحت مألوفة لديهم مثل بقية أفراد الأسرة؟

أضف إلى ذلك أن الأميرة ديانا كانت من النوع الذى يسهل ضمه إلى أى أسرة، فشخصيتها، فيما يبدو من الصور على الأقل، لا تهدد أحدا. جميلة نعم، ولكن جمالها ليس من النوع المتوحش أو المثير لشهوة عارمة. بل جمالها هادئ لطيف، وابتسامتها وديعة وصورها الحزينة عندما تكون حزينة، تؤثر في القلب وكأنها صورة أختك أو ابنتك. وهى فضلا عن ذلك تعرضت لظلم واضح. كانت سعيدة بزواجها بملك المستقبل، فإذا به يخونها مع امرأة متزوجة لا تبدو فيها أى ميزة خاصة تبرر أن يترك من أجلها الأميرة الجميلة الوديعة. ونحن نميل بالطبع إلى التعاطف مع المظلومين إذ أننا كلنا نعتبر أنفسنا، بسبب أو آخر، مظلومين مثلهم.

قلت لنفسي إذا: ليس هناك أى غرابة فيما شعرت به من صدمة عنيفة وفزع لدى سماعى الخبر، والأمر لن يدوم طويلا، فسرعان ما تعود الأمور إلى وضعها الطبيعى، وأتبين بوضوح أن الأميرة ليست فردًا من أفراد أسرتي، ولا تربطنى بها في الحقيقة أية صلة.

ومع ذلك لاحظت، حتى مع مرور الوقت على سماعى بالخبر، إلحاحًا مستمرًا للخبر على ذهنى، يذهب ليعود، وكلما تذكرته من جديد

أيقنت أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأن مصرع الأميرة أخطر بكثير من مجرد وفاة أميرة جميلة ووديعة ومشهورة في حادث سيارة. بدا لى الأمر وكان من الممكن أن يرمز لشيء مهم قد يلخص بدوره حياتنا الحديثة كلها.

قلت لنفسي: نعم بالطبع، إن وسائل الإعلام قد خلقت الأميرة خلقا ثم قتلتها قتلا.

احتفلت بها وسائل الإعلام يوم زواجها بولى العهد فظهرت كسندريلا الطيبة المستبشرة بالحياة بعد أن حصلت على قلب الأمير، ولم يكن هناك بعد هذا من مزيد.

ولكن وسائل الإعلام لم تسكت بالطبع. تتبعتها حتى التقطت أخباراً مثيرة عن احتمال توتر العلاقات وبداية فتور، وعن احتمال وجود علاقات جديدة، وعن مرض عصبى، وقلة نوم وانعدام الشهية للأكل .. الخ وكان هذا بالطبع، إذا تكرر بدرجة معينة، كافيا لإفساد أى علاقة مهما كانت، وإفقاد أى شخص أى شهية للأكل وحرمانه من أى نوم، وتقوية علاقات أخرى قوية إن لم تكن قوية من قبل، وإضاعة أى أمل فى إصلاح العلاقات بين الأمير والأميرة إن كان ثمة أمل.

أحرزت وسائل الإعلام انتصارا ساحقا بالطبع بانتهاء العلاقة بالطلاق. ولكن كيف تنتهى القصة عند هذا الحد، والناس لم تسأم بعد صورة الأميرة الجميلة فى الصحف؟ تتبعوا علاقاتها الجديدة وأخبار خلافاتها، الحقيقية والمزعومة، مع الأسرة المالكة، حتى كاد يجن جنون الأميرة تماما، وكادت تفقد صوابها إن لم تكن قد فقدته بالفعل. والمؤكد أنهم

قتلوا روحها قبل أن يقتلوها ماديا. فالأميرة فـي الشهور الأخيرة كـانت تبدو كالمأخوذ لا تدرى أين تذهب وماذا تفعل؟ لم تعد ملكا لنفسـها: بـل ملكا للمصورين ومحررى الصحف. وكان لابد بالطبع أن ترضخ وأن تفعـل بالضبط ما يريدونها أن تفعل. فبعـد أن فقـدت روحـها ولم يبـق منـها إلا جسد جميل يغير ثيابه فى اليوم عشـر مـرات، تصرفـت بـالفعل كجسـد جميل:

(ما دمتم ترونى هكذا، فأنا إذا كذلـك . مـا دمتـم تريدوننـى كذلـك، فلكم ما تريدون) .

يجب إذا ألا ننخدع بالظن بأن الأميرة كانت يوم مصرعها تريد بالفعل الهرب من المصورين. لقد كان هـذا صحيحـا منـذ بضـع سنوات، عندما بكت بكاء مرا لدى مفاجأة الكاميرات لها وهـى تقوم ببعـض التمرينـات الرياضية. لابد أن الأمر قد اختلف كثيرا بعـد ذلـك. فـها هـى منـذ ذلـك الحين، تبدو متعاونة تماما معهم، وإن تظاهرت أحيانا بغير ذلك. كـانت قد باعت نفسها تماما لهم. نعم كانت السيارة تسير بسرعة جنونيـة أمـام المصورين، ولكن لولا النهاية المأساوية غير المتوقعة لكان الأمر يبدو أقرب إلى أن يكون لعبة بينها وبين رجـال الإعـلام ينتصـر فيـه كالعـادة رجـال الإعلام بالتقاط ما يشاءون من الصور.

يدافع رجال الإعلام عن أنفسهم بالقول: « الذنب ليس ذنبنـا . مـاذا نفعل والناس يريدون هذا؟ ما العمل وأصحـاب الجرائـد يسـتعدون لشـراء صور ديانـا بالملايين، وذلـك بالطبع بسـبب أن النـاس مسـتعدون لدفـع الملايين بدورهم لرؤية صورها فى الجرائد؟ » .

هذا الكلام مرفوض تماما، لأنه وإن كان لدى الناس رغبة دفينة فى التجسس والتلصص على غيرهم من الناس، فرجال الإعلام ليسوا مضطرين لمسايرة أدنأ المشاعر. إنما هذا قانون السوق الشهير، أو قانون (الشباك) فى السينما والمسرح، وهو لا يعنى فى نهاية الأمر إلا هذا: « لنفعل أدنأ الأشياء إذا كانت أدنأ الأشياء هى أكثرها ربحا ».

□□□

رغم ثقتى بصحة ما كتبته فإن هذا الخط من التفكير حول مصرع الأميرة ديانا لم يرضنى إرضاء كاملا، بل لم يرحنى إطلاقا، وظللت أشعر بأن المأساة أكبر من هذا، وأن فى الأمر شيئا أهم من مجرد حماقة وسائل الإعلام. بدا لى أن فى الأمر شيئا شبيها بما فى المأساة الإغريقية. وقد أكد لى هذا الخاطر بما لا يدع مجالا للشك صورة رهيبة رأيتها منشورة فى إحدى الجرائد فى اليوم التالى مباشرة لمصرعها، وهى صورة رجل أسود البشرة يبدو فى نحو الأربعين من عمره، من السود الحائزين على الجنسية البريطانية، وهو يضع باقة من الزهور على باب قصر الأميرة. وقد ركع على ركبتيه ووضع يده على جبينه منخرطا فى بكاء شديد (والمصورون وراءه أيضا يصورون) قلت لنفسى « يا ربى، ما الذى بين هذا الشخص وبين الأميرة ديانا؟ إن لكل منهما عالما ليس بينه أية صلة بعالم الآخر؟ فلماذا تنهمر كل هذه الدموع، وما سر كل هذا الحزن؟ » .

قلت لنفسى أيضا «إن فى الأمر شيئا أهم من جريمة وسائل الإعلام، ومن مجرد إشفاقنا على الأميرة المسكينة؟ فما هو يا ترى؟ » .

إن في الأمر شيئا يشبه بالفعل المأساة الإغريقية. فلو تأملنا الأمر جيدا لكان علينا أن نتنبأ بهذه النهاية قبل وقوعها . ألم يكن هناك شيء في تطور مأساة الأميرة ديانا منذ بدأنا نعرف وجود شقاق بينها وبين زوجها ينبئ بنهاية مأساوية لا محالة؟ ما هو هذا الشيء؟

تذكرت حدثا له شبه شديد بقصة الأميرة ديانا، في قصة الفيلم الشهير (زوربا اليوناني) ، فقد يتذكر القارئ تلك المرأة الرائعة الجمال (أيرين باباس) ولكن سيئة الحظ، في تلك القرية البائسة والمجدبة من كل شيء. المرأة فقدت زوجها في ريعان شبابها، وهي تتوق ولو ليوم واحد سعيد مع رجل يحبها وتحبه، فلا تجد في هذه القرية المجدبة رجلا واحدا جديرا بها ، فكلهم غلاظ قساة . الجميع يشتهونها، فهي تكاد أن تكون الشيء الوحيد الجميل في القرية كلها، ولكن لا أحد يعتبر نفسه كفؤا لها. الجميع يشتهونها ويكرهونها في نفس الوقت: فهي الشيء الوحيد الجميل في حياتهم ، ومع ذلك فوق متناول الجميع. والنساء يمقتونها مقتا شديدا لأن الرجال يحبونها حبا شديدا.

يقع في غرامها فتى مراهق يظن أن من الممكن أن يفوز بقلبها، فلا تعيره بالطبع أى اهتمام، فإذا بالفتى يشنق نفسه. ويزيد الأمر سوءا في نظر أهل القرية، أن يظهر شاب إنجليزى متحضر يبدو وكأن المرأة قد بدأت تميل إليه.

كان هذا كافيا لأن تثور القرية كلها ضد المرأة الجميلة. وكأنها قد خانتهم جميعا، دون أن تكون المسكينة قد أذنبت على الإطلاق:

لم يكن لها أدنى ذنب في أن يهيم بها شاب مراهق مهووس، ولا في أن يميل قلبها للزائر الإنجليزى. اشتركت القرية كلها في رمى المرأة الجميلة بالحجارة، رجالا ونساء، حتى قتلوها. الرجال يقتلونها تفريجا لما في جوفهم من مشاعر الحقد الشديد عليها لأنها لم تمارس الحب مع كل واحد منهم، والنساء يقتلنها لأنها كانت أجمل منهن جميعا.

ومع ذلك فما أن انتهت عملية القتل وماتت المرأة الجميلة حتى أصيب الجميع بوجوم وكآبة منقطعة النظير، وكأنهم قد فقدوا لتوهم أحب الناس إليهم، والشيء الوحيد الجميل في حياتهم.

وشعروا بالأسى يمزق قلوبهم وكأنهم ليسوا هم الذين قاموا بقتلها بل قام به شخص مجهول لابد من البحث عنه!

تذكرت أيضا قصة الطيب صالح (موسم الهجرة إلى الشمال) حيث يقوم بطل القصة بقتل المرأة الوحيدة التى أحبها حبا حقيقيا، إذ بقدر ما كان يحبها ويشتهيها كان يمقتها ويحقد عليها. إذ أنه لم يكن قادرا على الاستحواذ عليها استحواذا تاما. كانت تحبه بدورها، ولكنها كانت الوحيدة التى تعرف نقطة ضعفه، كما أنها كانت محاطة دائما بالمعجبين الذين تركتهم يعبرون عن إعجابهم ولو أمام نظره!

هل كانت الأميرة ديانا بالنسبة لنا هى هذه المرأة وتلك.

لا نستطيع الحياة معها ولا نستطيع الحياة بدونها ؟

هل هذا هو سرّ ذلك البكاء المرّ للرجل الأسود المسكين الذى ترك لدمعه العنان وهو يضع الزهور أمام باب قصر الأميرة؟

إنه واحد من الملايين الذين ساهموا يوميا فى تعذيبها وجلدوها بسياط الشائعات والكاميرات ، ونهشوا لحمها وتلذذوا برؤية دموعها وسماع قصة طلاقها وغيرتها وضياعها. ولكنهم أيضا لم يستطيعوا أن يتحملوا غيابها ، فرموا أنفسهم باكين منتحبين وأتوا إليها بالزهور وكأنهم لم يرتكبوا فى حقها أى جرم؟

هل بهذا يمكن أن نفسر أيضا موقف من كان أقرب الناس إليها؟ من الأمير تشارلز نفسه إلى أمه الملكة اليزابيث؟

الأمير تشارلز لم يغفر لها أنها خطفت اهتمام الناس وحولت أنظار الناس عنه ، ولم يستطع هو نفسه ، وهو زوجها ، أن يستحوذ حقيقة عليها ، إذ سرعان ما أصبحت ملكا للناس جميعا ، فعاملها بقسوة بالغة، وراح يبحث عن امرأة يمكن أن يستحوذ عليها حقًا. والملكة اليزابيث لم تغفر لها طبعا أن الناس أعطوها من الحب والاهتمام أضعاف ما أعطوها ، ووجدوا فيها كل ما يمكن أن يمثل الملكية بجمالها وبهائها ، بينما لم تكن هى ، وهى الملكة الحقيقية ، بقادرة على أن تمدهم بذلك ، فحقدت عليها بدورها وعاملتها بقسوة زائدة.

والآن الجميع يتظاهرون بالحزن والفزع ، بل هم بالفعل فى أشد الحزن والجزع ، وكأن أحدا منهم لم يرتكب أى ذنب ، فراحوا يجهزون جنازة لا يحصل عليها إلا الملوك!

أكان من المستحيل حقا أن نتنبأ بكل هذا قبل وقوعه؟

□□□

مع إلحاح قصة الأميرة ديانا على ذهنى منذ سماعى بخبر مصرعها ، ومتابعتى لبعض ما نشر عنها ، من توجيه اللوم الشديد لوسائل الإعلام التى خلقت الأميرة خلقا ثم تسببت فى موتها ، ومحاولة وسائل الإعلام رد هذه التهمة بالقول بأن الناس هم الذين دفعوهم دفعًا إلى ملاحقة الأميرة ، لأنهم يشتهون رؤية صورها ومعرفة أخبارها ، ثم منظر الجنازة الرائعة التى تم ترتيبها للأميرة ، وخروج خمسة ملايين (كما يقال) من الإنجليز للاشتراك فى تشييعها ، ومتابعة نصف سكان الكرة الأرضية لمنظر الجنازة على شاشات التليفزيون ، كل هذا أدى بى إلى تذكر قصة باليه مشهور هو باليه «كوبيليا» ، وكان كل ما تذكرته منها أنها تدور حول رجل يصنع العرائس ويبيعها ، وكان من بين ما صنعه دميه لفتاة ، فى غاية الجمال ، ثم جعلها باستخدام بعض أعمال السحر تتحرك وترقص كأنها امرأة حقيقية من دم ولحم.

لم أتبين على الفور العلاقة بين الأميرة ديانا والدمية كوبيليا ، ولكنى شعرت شعورا قويا بأن هناك شبها شديدا بينهما ، فأحضرت القصة وقرأتها ، فإذا بى أتبين أن الشبه كبير لدرجة تحتم علىّ أن أروى قصة كوبيليا على القارئ.

□□□

الدكتور كوبلياس صانع ماهر للعرائس ولكنه أيضا يفهم فى السحر ويمارسه بنجاح. من بين العرائس التى صنعها عروسة بالحجم الطبيعى رائعة الجمال ، سمّاها «كوبيليا» ، وشعر بالفخر الشديد عندما أتم صنعها ووضعها على كرسى فى الشرفة ليراها كل رائح وغادٍ ، وقد ألبسها ثوبا يخلب اللب بجماله ، ووضع فى يدها كتابا وكأنها تقرأ.

مرّ شاب وسيم فى الطريق فرأى العروسة فى الشرفة فظن أنها امرأة حقيقية وفتن بجمالها ووقع على الفور فى حبها ، وراح ينتهز أى فرصة لكى يمر أمام شرفتها ليلقى نظرة جديدة عليها ويمتع عينيه برؤية الثوب الجديد الذى ترتديه كل يوم. وأخيرا لم يتحمل الشاب أكثر من ذلك فذهب إلى الدكتور كوبلياس ليعلن له حبه للفتاة ورغبته فى الاقتران بها. دهش الدكتور كوبلياس دهشة عظيمة وإن كان قد سُرّ أيضا سرورا بالغا بنجاحه فى صنع دمية بهذه الدقة وهذا الجمال ، وكان على وشك أن يبوح للشاب بالحقيقة وأن يقول له إنها ليست إلا دمية ، ولكن خاطرا شريرا مرّ بذهنه ، فهو ليس فقط صانعا ماهرا للعرائس ولكنه أيضا تاجر جشع لا يشبع من تكديس المال ، بعضه فوق بعض.

سأل الدكتور كوبلياس نفسه: «إذا كان هذا الشاب بمثل هذا النزق فلماذا لا أفيد من نزقه؟ مادام يظن أنها امرأة حقيقية فسوف أجاريه فى سفهه وغيّه ، وأزيده بلاهة على بلاهته ، فأستخدم ما أعرفه من طرق سحرية لأضفى على الفتاة ما ليس فيها ، وأجعلها تتحرك وتمشى وترقص وتبتسم وتضحك وتتكلم ، وكأنها أذكى وأرق امرأة ، بالإضافة إلى كونها أجمل النساء ، وأجعلها تقول كلاما من تأليفى ، فيقع المسكين فى حبها أكثر فأكثر ، ويصبح على استعداد لأن يدفع لى كل ما يملك مهرًا لها».

وفعلا استأذن كوبلياس من الشاب بضع لحظات ، وألقى بنظرة على بضع صفحات فى إحدى كتب السحر التى يملكها ، وذهب إلى الدمية وأجرى عليها بعض الطقوس فإذا بها تخرج إلى الشاب وهى تبتسم وترقص وتتكلم وكأنها أذكى وأرق امرأة فضلا عن جمالها الخلاّب.

سر الشاب سرورًا عظيما ، وكاد يطير من الفرح لولا أنه من سوء حظ الدكتور كوبلياس أن حدث ، قبل أن يقبض الثمن من الشاب ، أن تعثرت قدم كوبيليا أثناء الرقص فوقعت على الأرض ، فهرع إليها حبيبها لمساعدتها على القيام ، فإذا به يراها على الأرض كالجثة الهامدة ، وإذا به عندما مدَّ يده ليلمس جبينها ، يكتشف لدهشته العظيمة وخيبة أمله الشديدة ، أنها ليست إلا دمية من البلاستيك ، لا حياة فيها بالمرة ، وأنها ليست إلا وجها جميلا وجسدا ممشوقا يرتدي ثوبا رائعا ، أما الباقي كله فمن أعمال السحر التى قام بها الدكتور كوبلياس.

كاد الشاب أن يجن جنونه إذ رأى كل أحلامه تتبدد فى لحظة ، وعندما رآه الناس بهذه الحال انهالوا بالشتائم والسباب على الدكتور كوبلياس ، الذى خدع الشاب هذه الخدعة الدنيئة طمعًا فى نقوده ، فأدى بالشاب إلى هذه الحالة النفسية البائسة.

ودافع الدكتور كوبلياس عن نفسه قائلا: «وماذا تنتظرون منى أن أصنع مع شاب مهووس لا يستطيع التمييز بين المرأة الحقيقية والمرأة البلاستيك، وعلى استعداد دائما لأن يرى ما يريد أن يراه ، دون أن يستخدم عقله ، ويريد أن يعيش على الدوام فى حلم بعد آخر من أحلام اليقظة ، ومستعد لدفع أى مبلغ من المال لمن يهيئ له هذا الحلم؟ إذا كان هو بهذه البلاهة فلماذا لا أستفيد من بلاهته وهذه صناعتى ومهنتى؟ هل أنا وصىّ عليه؟».

ولكن الناس لا يقتنعون ، ويستمرون فى توجيه السباب والإهانات للدكتور كوبلياس ، خاصة وأنهم هم أنفسهم كانوا قد خدعوا مثل هذا

الشاب تماما ، وكانوا كلما مرّوا على بيت كوبلياس ، ظنوا هم أيضا أن الدمية امرأة حقيقية من لحم ودم.

عدد صغير جدا من الناس ، ممن يتسمون بالميل إلى الفخر بأنفسهم ، انتهزوا هذه الفرصة لأن يفخروا بأنفسهم ويشمخوا بأنوفهم فقالوا بتكبر واضح «لقد كنا نعرف منذ أول لحظة أنها ليست إلا دمية، ولم تنخدع بحيل الدكتور كوبلياس ولو للحظة واحدة . إنه هو الذى جعلها تبتسم وترقص وتتكلم ، وأنه هو الذى كان يختار لها الثياب، بل هو الذى كان يضع الكلام الذى تنطق به، وهو الذى فكرّ لها فى كل الأدوار التى كانت تقوم بها، لكى تستمر فى التأثير على هذا الشاب وتملك بها عقله .

ومن ثم فنحن لا نشعر بأى حزن بالطبع لما حدث لها. إذ كيف يحزن عاقل لما يصيب دمية من البلاستيك مهما كانت جميلة الوجه؟؟».

مضى الدكتور كوبلياس مهزوما مدحورًا ، ولكن لا يجب أن يظن أى شخص أن ما حدث له فى قصته مع كوبيليا سوف يمنعه لأكثر من يوم أو يومين من أن يصنع عرائس أخرى ، فالقصة لابد أن تتكرر طالما وجد أشخاص لهم جشع الدكتور كوبلياس ، ويملكون من القدرة على صنع العرائس ومن كتب السحر ما يملكه ، وطالما ظل هناك من الشباب والشيوخ ما يستعذبون الحياة فى أحلام لا صلة لها بالحقيقة.

□□□

لست فى حاجة بالطبع إلى أن أبيّن للقارئ بصريح العبارة ، العلاقة بين قصة الأميرة المسكينة ديانا وقصة الدمية كوبيليا ، أو أن أقول للقارئ من هو الدكتور كوبلياس فى قصة الأميرة ديانا ، ومن هو الشاب الذى وقع فى حبها.. الخ. فالأمر واضح تماما. ولكنى أحب فقط أن ألفت نظر

القارئ إلى أنه في القصة الحقيقية ، قصة الأميرة ديانا ، عاد الدكتور كوبلياس إلى صنع العرائس بأسرع بكثير مما كنا نظن ، ومما حدث حتى في قصة كوبيليا. فحتى جنازة الأميرة ديانا الرائعة ، كان ترتيبها بإيحاء خفي من الدكتور كوبلياس ، الذى حقق حتى من الجنازة نفسها مكاسب خيالية. وأنه حتى الآن لم يجرؤ إلا عدد ضئيل جدا من الناس على القول بأن الأميرة ديانا لم تكن في الحقيقة أكثر من امرأة عادية جدا ، وأن الذين يعتقدون ذلك ولم يقولوه علنا ، لم يمنعهم من قوله علنًا إلا خوفهم من الدكتور كوبلياس ، أو أنهم قالوه ومنع الدكتور كوبلياس نشره. ولكى أثبت للقارئ أن الدكتور كوبلياس قد عاد فورًا إلى صنع دمى جديدة تبدو وكأنها أشخاص حقيقيون ، ألفت نظره إلى أن بعض الجرائد قد بدأت تنشر مقالات عن الأمير الصغير وليام ، الابن الأكبر للأميرة الراحلة ، تحمل عناوين: «نحن نحبّك يا وليام!».

□□□

مما يلفت النظر أيضا فيما نشر عن مصرع الأميرة ديانا ، تكرر المقارنة بين الصدمة التى أحدثها مصرعها وتلك التى أحدثها مصرع الرئيس الأميركى كينيدى، وكذلك خبر انتحار مارلين مونرو. ولكن المهم أن نلاحظ التطور الرهيب الذى حدث في قوة تأثير وسائل الإعلام خلال ثلث القرن الذى انقضى منذ مصرع كينيدى وانتحار مارلين مونرو، وقد يضع هذا يدنا على السبب الحقيقى للأثر غير المسبوق لمصرع ديانا.

ففى خلال ثلث القرن الماضى تضاعفت قوة وسائل الإعلام من خمس نواح على الأقل: قدرتها على الوصول إلى الخبر والصورة، وسرعة نقلهما

من مكان لآخر، ودرجة الحاحها على أذهان الناس ، وإتقانها لوسائل التأثير فيهم، فضلا عن عدد الناس الذين تستطيع الوصول إليهم. ذلك أنه لم يعد هناك مكان فى العالم يستعصى على وسائل الإعلام الوصول إليه، وليس هناك سور لا تستطيع تسلقه، ولا يكاد أن يكون هناك مكان يستطيع فيه أحد أن يحظى فيه بالخلوة بنفسه أو بصديقه دون أن تصل إليه عدسة الكاميرا، ولا يكاد أن تكون هناك كلمة لا يمكن تسجيلها.

والقدرة المالية التى أصبحت تتوافر لوسائل الإعلام دعمت قدرتها التكنولوجية. وكل ما يتم الحصول عليه من أخبار وصور يتم نقله وإذاعته فى لمح البصر، مصحوبا بأكثر التعليقات فاعلية وتأثيرا فى الناس، ويذاع كل هذا بإلحاح غريب على أسماع الناس وعيونهم ، مع استمرار البرامج التليفزيونية والإذاعية طوال الليل والنهار، وإذاعة نشرة أخبار جديدة كل بضع دقائق، لا لكى يسمعها من لم يسمع سابقتها، بل ليسمع الشخص نفسه النشرة نفسها مرات عدة . وقد أصبح عدد الذين يشاهدون التليفزيون ويسمعون الراديو ويقرأون الجريدة أضعاف عددهم منذ ثلث قرن، ولم تعد المسافات البعيدة ولا سلطة الدولة قادرة على حرمانهم من معرفة ما يجرى بكل تفاصيله، سواء كان الخبر يستحق أن يعرفوه أو لا يستحق، يتفق أو لا يتفق مع رأى الحكومة التى يتبعونها. بل لقد تضاعف عدد هؤلاء مرات عدة حتى خلال الفترة القصيرة التى انقضت بين زواج ديانا وموتها. كان الذين شاهدوا مراسم زواجها يعدون بعشرات الملايين فإذا بالذين شاهدوا جنازتها يعدون بمئات الملايين .

ما مغزى هذا كله؟ قد يقال إن كل هذا يفسر لماذا كان عدد الذين صدموا لمصرع ديانا بهذا الحجم الكبير، ولكنه لا يفسر حجم الصدمة

نفسها، ولكن الحقيقة أن حجم الصدمة يتناسب مع عدد الذين تعرضوا لها. ولهذا الأمر علاقة وثيقة بغريزة التطبيع. إن تأثير خبر أو منظر معين على شخص إذا كان بمفرده يختلف تماما عن تأثيره عليه لو كان بين جمهور غفير. إن المرء قد يمشي في جنازة مع خمسة أشخاص فلا يشعر بما يشعر به لو كان حوله الآلاف المؤلفة من الناس ويعرف أن هذه الجنازة يشاهدها في الوقت نفسه مئات الملايين الآخرون. إنه قد لا يبكي بمفرده، ولكنه قد يبكي وهو محاط بأشخاص يبكون..

إن جزءا كبيرا من وقع الصدمة التي أحس بها الناس لدى سماعهم بمصرع ديانا يعود في رأيي إلى هذا الأمر البسيط : عدد الناس الذين تعرضوا للصدمة نفسها في الوقت نفسه. وهو أيضا يفسر جزءا كبيرا (بل لعله الجزء الأكبر) من استحواذها على اهتمام الناس لسنوات عدة قبل وفاتها. فبماذا كانت الأميرة ديانا مشهورة؟ بالجمال؟ نعم. بالأزياء الجميلة التي كانت ترتديها؟ نعم. بزواجها ثم طلاقها من ولي عهد بريطانيا؟ نعم. ولكن الأهم من ذلك كله بكثير هو شهرتها نفسها، أي أنها كانت مشهورة في الأساس بأنها مشهورة.

بهذا المعنى كانت الأميرة ديانا ضحية، ضحية ذلك الوحش الكاسر المسمى بالجماهير، أو الاعداد الغفيرة، وهو وحش قادر على التهام أي شخص وقتل أي روح، وتحويل أي إنسان إلى دمية تصبح طوع بنانه، تتحرك وتتكلم وتتصرف كما يشاء لها بالضبط أن تتحرك وتتكلم وتتصرف . وهكذا كانت الأميرة ديانا في سنواتها الأخيرة.

المخيف في الأمر، فضلا عن كل ذلك، هو أننا لازلنا في بداية الطريق. إن الأهمية الحقيقية لظاهرة الأميرة ديانا هي أنها يجب أن

تلفت نظرنا إلى ما ينتظرنا في المستقبل. لقد مر مصرع كينيدى ثم انتحار مارلين مونرو بسلام نسبي. وها هو مصرع ديانا يصرخ فينا ينبهنا أنه حتى لو مر هو أيضا بسلام، فلن يكون الأمر هكذا دائما. ففي المرة القادمة سيكون الجنون حقيقيا، ولن يدرى المرء ما إذا كان يبكي شخصا حقيقيا أو موهوما، يبكي لأنه حزين أم لأنه يراد منه أن يكون حزينا، أو حتى ما إذا كان هو الذى يبكي أم شخص آخر يشبهه.

ibtesama.com